

الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية في
فرنسا قبل بلاط الشهداء

الفتوحات الإسلامية في فرنسا قبل بلاط الشهداء

بلغت قوة المد الإسلامي في جنوب فرنسا وخلف جبال البرت خلال عهد الولاة مبلغا عاليا وحازت سيقا كبيرا كان للمسلمين فيه نشاط واضح وبصورة رئيسية وراء جبال البرت ، وهذا يشير إلى جهود المسلمين المتواصلة في محاولات الفتح والاستقرار والظاهر أنه لولا رؤية الولاة استتباب الفتح في الجزيرة الأندلسية واستقرار الأمور وتوطيد دعائم الحكم الإسلامي لما أقدموا كثيرا على نقل ميدان الدعوة والغزو وراء جبال البرت ومن هنا تترك أن مشروع غزو فرنسا واكتساح أوروبا لتنتشر رساله الإسلام بها لم يمت او ينتهى بنهاية رحيل موسى بن نصير عن الأندلس لكن المشروع ظهر مرة أخرى وهكذا لم يتوقف الفتح الإسلامي وراء جبال البرت إذ بذل عبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٥-٩٧هـ / ٧١٤-٧١٦م) جهودا واضحة بالسير بالراية الإسلامية إلى تلك المناطق جنوب فرنسا وانتقال الغزو والدعوة إلى الأراضي الكبيرة دعما لسياسة الاستقرار في هذه البلاد . إذ أرسل بعضا من قواده في حملات عسكرية إلى طركونه في الشمال حتى برشلونه عاصمة (ارغون وبنسيلونا عاصمة الباسك في جبال البرنيه وبذلك تكون عملية الفتح في الأندلس قد استكملت نهائيا في عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٥-٩٧هـ/٧١٤-٧١٦م)

بحيث لم يبق خارج نطاق السيادة الإسلامية سوى بعض الجيوب الصغيرة كان من السهل تصفيتها لو اتخذت الأمور مسارها الطبيعي وهذا يعنى أن جيوبا صغيرة في هذه المناطق كان الولاة يفتتحونها او فلولا تتجمع للمقاومة وتتحصن في مناطق نائية في المناطق الشمالية الغربية

كذلك فإن أيوب بن حبيب اللخمي (رجب ٩٧ / ذي الحجة ٩٧هـ) وإلى الأندلس الذي خلف عبدالعزیز بن موسى قد وجه جهودة نحو الشمال ليطهر البلاد من آیه مقاومه أو تجمع فلول رغم قصر مده حكمه .

وجاء السمع بن مالك الخولانى (رمضان ١٠٠ / ذى الحجة ١٠٢هـ . ٧١٩م) إلى مركز عمله في قرطبه وهو مندفع بالحماس للعمل وراء جبال البرت والفتح في فرنسا وكان له نشاط واسعاً جنوبى فرنسا وإن كانت بعض المصادر تذكر أن الحر

بن عبدالرحمن الثقفي (٩٧-١٠٠هـ/٧١٦-٧١٩م) وهو الوالى الذى سبق السماح بن مالك الخولاني قد قام بالغزو وفي اراضى فرنسا وماوراء البرانس ويذكر أيضا «شكيب أرسلان» أنه غزا جنوب فرنسا حتى اربوبه عاصمة فرنسا الربوبه وظل بغزو هذه الارزاء من فرنسا الجنوبية حتى اضطر سكانها إلى طلب الصلح والإعتراف بالسياده الإسلامية على تلك المناطق التي بدأت تنطوى تحت لواء الرايه الإسلامية فى جنوب فرنسا واذا كانت الغزوات الحربية لعبدالرحمن الثقفي هى بداية الزحف الإسلامى فى أرض فرنسا بعد عهد موسى بن نصير وعلى الرغم من ان المصادر العربيه لم تشر إلى اعمال الحر الثقفي إلا أن المؤرخ الفرنس (كوديره) قد اشار إلى الفتوحات الحربية لعبدالرحمن بن الثقفي فى أرض فرنسا وتصميمه على ضم المناطق إلى دولة الإسلام الكبرى.

لكن الفتوحات الإسلامية فى فرنسا قد شهدت بعدا جديدا يتولى السماح بن مالك الخولاني ولاية الأندلس فقد نشطت حركة المد الإسلامى لنشر رسالة الإسلام وتعميق أثرها فى نفوس الشعوب التى تسكن فيما وراء جبال البرانس ذلك لأن السماح بن مالك الخولاني كان رجلا قوى الإيمان راسخ العقيدة عاملا ماوسعه الجهد للجهاد فى سبيل الله وكان جم النشاط دائب الحركة والإستعداد لأنه بادر بالتحرك شمالا عبر الاراضى الفرنسية وحول الحماس فى نفوس الجند إلى جهاد وأرد تحقيق حلم موسى بن نصير فى فتح تلك الأقاليم والوصول إلى دمشق شرقا وقد بذل نشاطا واسعا فى جنوب فرنسا وانفق جهودا كبيرة فى غالة Goule حتى طرسوكنه Tarascan وطولوشه Toulouse عاصمة اقباطيه Aquitania وقد قام السماح الخولاني فعلا بغزو سبثمانيه فى جنوب فرنسا وبها سبع مدن كبرى وكانت عاصمة اربونه وحدثت معارك عديدة هناك بعد أن انعطف نحو الغرب حيث نهر الجاردن مستوليا فى طريقه على مايقابله من مدن حتى وصل إلى تولوز فحاصرها واستولى عليها ودارت معركة بين المسلمين وبين دوق اقباطانيه واشتد القتال ويبدو أن هذا النشاط العسكري الكبير الذى قام به السماح

الخولي قد أفرع أهل اكواتياته فنهض دوقها وسار بجيشية حتى لقي السمع ودارت معركة عنيفة على مقربة في طولوشة Touilounse واستشهد كثرة من المسلمين منهم الوالي السمع بن مالك الخولاني في يوم الترويه أو وقفة عرفه عام ١٠٢هـ / ١٠ يونيو ٧٢١م) وقد ذكر ابن بشكوال في كتابه نفع الطيب ان السمع استشهد بأرض الفرنجة يوم الترويه سنة اثنين ومائة هجرية وذلك بعد أن أشتد القتال ولكن الجند المسلم الذي عرف بقوة إيمانه ورسوخ عقيدته قاتل وثابر وبذل الدم من أجل نشر العقيدة الإسلامية وكتب الله الشهادة لقائد جند المسلمين ، وقد ذكرت مصادر أخرى أن السمع الخولاني استشهد بأرض الفرنجة في ذي الحجة اثنين ومائة كما في نص ابن بشكوال السابق وآخرين وتعنى كلمة الفرنجة عموما عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين سكان بلدان ماوراء البرت (الأرض الكبيرة) لاسيما فرنسا وتوجد في جنوب فرنسا مدينة اسمها قريب في طرسونه وقد كانت طرسونه قاعدة من قواعد شمال الجزيرة الأندلسية وهي عاصمة كورره تطيله Tudela وربما كانت اربونه تابعه لطربرونه اداريا .

ولم يستطع الجيش الإسلامي العودة إلى قواعد الأندلس إلا بفضل العناية الإلهية وبفضل أحد كبار جنده هو عبد الرحمن الغافقي . وكان عهد السمع ذو أهمية كبرى في الجهاد في سبيل الله في أرض فرنسا إذ أنه في عهده بدأت حركة الفتوح تأخذ وضع الإستقرار للجنود المقاتلة والحاميات في أرض غالية وأصبحت أربونه قاعدة أماميه لإتمام الغزو الإسلامي في تلك البلاد واتخاذها مركز لتجميع القوى الإسلامية للإنطلاق منها لفتح كل فرنسا .

وبذلك ضمنت مقاطعه سيمانيه Septimania جنوب شرق فرنسا خلف جبال البرت إلى الولاية الإسلامية في الأندلس وكانت إدارة مستقلة بشئونها لكن تخضع للحكم الإسلامي في الأندلس وكانت مقاطعة تضم سبع مدن كبرى منها اربونه وقرقشونه وكانت سيمانيه هذه أول ماوصلها مد الجهاد الإسلامي منذ أيام السمع بن مالك الخولاني الذي أشرف على قيام حكومه إسلاميه فيها نظم احوالها فاتخذ

من مدينة أربونه Narbonne عاصمه لها ويشير هذا إلى أن المسلمين افتتحوا منذ هذا الوقت المبكر لعهد الولاة كل هذه الأراضي الفرنسية ما بين أربونه في الجنوب متصلا بالبرت والأندلس على طول الشاطئ الشرقي وغدت منطقة إسلامية ضمن هذه الحكومة المحلية التي اتخذت عاصمتها أربونه قاعده الجهاد وراء البرت وكانت موقعة طولوشه هي أول محاولة جدية لاختراق البرنة إلى أوربا حيث طبعت هذه المرحلة بطابع جهادى خاص تستطيع أن تطلق عليه سنوات المد الإسلامى لأوروبا فقد كان اشتهاد السمح الخولانى نقطة ارتكاز وانتشار فى تلك الأقاليم فى ذلك الوقت وبناء إداره عليه وبعد استشهاد السمح بن مالك الخولانى تولى قيادة الجند الإسلامى فى الأندلس عنبسه بن سحيم الكلبي (١٠٣ هـ / ٧٢٣م) وقد كانت البلاد فى فوضى بعد استشهاد السمح واشتد النزاع والصراع بين العصبيات العربيه التي بدا يستفحل أمرها بالأندلس وقد كانت مهمته دقيقه إلى حد ما فقد جاء إلى قرطبه وعرب الأندلس خارجين من هزيمة قاسية وهى الأولى فى تاريخهم العسكرى الأوربي منذ أن وطئت أقدامهم أرض القاره الاوربيه عام ٩٢ هـ / ٧١١ قد جاء عنبسه إلى قرطبه والمسلمون فى البلاد خارجين من معركة قتل فيها قائدهم السمح خارجين من الخولانى). وهو اول قائد مسلم يقتل فى معركة حربيه مع القوات الأوربيه شمال جبال البرانس وهو أول موقف يواجه المدن الإسلامى ويقف الفرنجه يقاتلون المسلمين بهذه القوه حيث كانت هذه الظاهره هى الأولى فى تاريخهم العسكرى الأوربي حيث تركت تلك الموقعه الحربيه أثارها الواضحة على مجريسات الأحداث فى ضروره مقابله التحدى الأوربي لقد حدثت هذه المعركه طولوشه (تولوز) فى فترة حكم الخليفه الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز بن مروان وفى فتره كان طبعها نشر الإسلام وإرسال الدعاه لتفقيه الناس وشرح تعاليم الإسلام .

ومن ذلك دور السمح فى نشر الإسلام وإستشهاد شمال جبال البرانس لنشر رايه الإسلام ومن هنا فإن هذه المعركه تعطى الدليل القوي على أن المد الإسلامى لم يكن إلا حركه دعوة للإسلام ولم تكن حركه غزو وسيطرة وأسلاب وغنائم وسيطرة سياسيه، وإلا لما أقدم المسلمون على الزحف لنشر الإسلام فى جنوب

فرنسا. وقدم عنبسه بن سحيم الكلبي (صفر ١٠٣- شعبان ١٠٧ هـ) فقام عنبسه بنشاط جهادى كبير وراء البرت واستمر في تقدمه نحو الشمال ، والشمال الشرقي وقد كان عنبسه واحداً من الولاة الذين قاموا بجهد بارز في الفتح وراء جبال البرت وذلك دعماً للتفوق الإسلامى فى الجزيرة الأندلسية ونقل ميدان الغزو إلى الشمال وربما يكون العمل وراء جبال البرت يقصد قطع دابر الفلول الفرنجية القوطية التي ربما كانت تسلل إلى شمال الأندلس فى أي معبر فى معابر البرت ومن هنا سلك عنبسة مسلك السماح الذى سلكه من قبل وهو مواصلة الزحف والغزو فى أرض الفرنجة لضم هذه الأراضى إلى ديار الإسلام لكى تصبح فرنسا الدولة الأوربية الثانية الكبرى فى أوربا بعد الأندلس ففكر فى تدعيم خط الدفاع عن أريونه عاصمة أقليم سيماتييه وكانت الامور قد استقرت فى الأندلس فعجل بالتهوض لغزو فرنسا.

وأنه غير واضح قطعاً متى بدأ عنبسه جهادة وراء البرت وكم استغرق وهل خرج لذلك الجهاد مرة واحدة ام اكثر من مره وهل قاد كل هذه الحملات بنفسه أو سبق إليه أحد بواسطة القوات الإسلاميه المرابطه فى ثغر أريونه. ولكنه لم يسر فى الإتجاه الذى سار فيه السماح بن مالك من قبل بل سار على الساحل فصعد بقواته مع نهر رانه حتى أدرك قرقشونه فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى نزل أهلها على شروطه ثم استولى عنبسه بعد ذلك على مدينة نيمه، ثم واصل زحفه يحدوة الأمل فى الإستيلاء على كل الأراضى الفرنسيه وضمها إلى الإسلام شأنها شأن الأندلس والمغرب ومصر والشام وفارس وكل الأقاليم التي تخضع للدولة الإسلاميه ثم الإتجاه شرقاً وشمالاً فى فرنسا لفتح باقى أجزاء اوربا واستمر فى زحفه الإسلامى حتى أدرك نهر رونه وذلك دون أن يلقي أيه مقاومة تذكر تعترضه فى طريقه من الفرنجة وصعد مع النهر حتى وصل إلى نهر «ساوان»، واستولى على (اوتون) ووصل إلى حوض الرون وفتح اقليم بروفانس واستمر فى سيره شمالاً مستولياً على ليون حتى وصل إلى (اوتان) فى أعالي نهر الرون وكان عنبسه الكلبيى قد دخل اقليم يورجونيا، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه استولى على

مدينة أوزة ووصلت الموجة الإسلامية الزاحفة في الأراضي الفرنسية حتى مدينة فاكون وشألون وهناك تفرعت الحملة إلى فرعين سارت الأولى نحو ديجون وبترو ولانجر فاستولت عليها وسارت الحملة الثانية في اتجاهها صوب (اوتون) مرة أخرى ولم يقف تيار هذه الحملة التي خرجت غايبه بالقرب من بلدة سانس Sens على بعد ثلاثين كيلو متر جنوب باريس الحالية وكان هذا أبعد ما وصلت إليه جيوش إسلامية مجاهده عند مدينة سانس. ومن هنا فإن قليلون في عالمنا العربي والإسلامي المعاصر الذين يعرفون أن الإسلام قد توطدت دعائمه ورسخ بنيانه وزادت رقعته وأنه وصل في مدها الواسع إلى أرض فرنسا وعلى بعد ثلاثين كيلو متر من باريس عاصمة فرنسا الحالية وأن المسلمين قد يعرفون أن أجدادهم استقروا في فرنسا مايقرب من قرنين في الزمان.

وهكذا وصلت القوات الإسلامية بقيادة عنبسه الكلبي إلى قلب فرنسا وغزا حوض الرون كله ونخبطت القوات الإسلامية نهر اللوار وأصبحت على مسافة قصيرة جدا من نهر السين نفسه وكان عنبسه من الولاة الذين استشهدوا في ميدان الغزو والفتح حيث كان من أنشط القادة وله دور واضح في الفتح بعد أن استمر في تقدمه حتى وصل إلى سانس. ويذكر ابن خلدون وغيره في المصادر العربية أنه تقدم بعيدا في الشمال داخل الأراضي الفرنسية في حين ذكر شكيب أرسلان أنه وصل إلى مدينة ساينس.

لكن هناك أمور داخلية في الأندلس فرضت على عنبسه العوده إلى الأندلس دون اني يقيم قواعد دائمه في هذه المناطق وكانت هذه الاسباب قد حدثت من نشاطه هناك ولولا العوده إلى الأندلس لتغيرت الأمور أكثر ولسار المد الإسلامي إلى أبعاد أكثر عمقا في الأراضي الفرنسيه. وهكذا عاد عنبسه إلى الأندلس إلا أنه استشهد في الطريق قبل أن يصل إلى الأندلس وذلك في شهر شعبان عام سبع ومائة هجرية ٧٢٦م في معركة مع الفرنجة قبل عبوره معابر جبال البرت في كمين نصب له حيث تكاثرت عليه جند الفرنجة قبل عبوره معابر جبال البرت فأحاطت به وبمن معه من القادة المسلمين وهكذا استشهد عنبسه في هذه المعركة وقد اختلفت

المصادر فى تعيين مكان هذه المعركة إلا إنه لاشك قد كانت فى شمال شرق فرنسا وقبل أن يعبر جبال البرت عائدأ إلى الأندلس وهكذا اغتالت عصابات الطريق القائد المسلم العائد من الغزو فى فرنسا وهو ثاني قائد بعد السمح بن مالك الخولانى يستشهد شمال جبال البرت فى سبيل نشر الإسلام.

وقد مرت فترة من الزمن توقف فيها أى نشاط إسلامي ذلك لأنه مضت سنوات قليلة لا نملك فيها اخبارا عن نشاط جهادى جرى خلف جبال البرت فى سنة مائه واحدى عشر. وقد آلت قيادة الجيش بعد استشهاده عنبسه إلى غدرة بن عبدالله الفهرى الذى رشحه أهل الأندلس للولاية لأنه نائب عنبسه على الجيش ولعله كان ساعده فى العمل الجهادي بل كان فى قلب المعركة التي استشهد فيها عنبسه وكان اختباره لمواصلة الغزو خلف جبال البرت وهناك اقول كثيره تذكر ان عنبسه لم يكن يريد من وراء هذه الغزوه الإسلامية الطويلة الزحف والاستقرار فى فرنسا وإنما كانت حملته إلى فرنسا قصد من ورائها التمهيد للحملات الإسلامية التي تأتى بعدها واكتشاف الأماكن الضعيفة فى تحصينات العدو وكان المسلمين قد استولوا على اقليم سيطماتيه وعلى عاصمته أربونه واستقروا واتخذوها قاعدة ومركز العلميات الحربية المتقدمة من شمال جبال البرت وكان عنبسه قد أخذ بثأر السمح واستولى على مدينه فرقوشه ولكن عنبسه لم يكن حذرا فى اندفاعه فى سهول فرنسا ولذا فإن الأعداء قطعوا عليه خط العودة واشتبكوا معه فى معركة عنيفة بعد أن كمنوا له بين الجبال فى الممرات الفاصلة بين فرنسا والأندلس وذلك عند محاولته العودة إلى الأندلس ووقف المد الإسلامى فى فرنسا عند الحد مؤقتا/

ويجب أن ننظر إلى هذه الحملة الجرنية إلى قادها عنبسه الكلبي حتى وصل إلى مسافة ثلاثين كيلو متر بالقرب من باريس عاصمه فرنسا الحاليه على انها كانت غزوة تشبه غزوة عقبه بن نافع الفهرى فى اجتياز بلاد المغرب بسرعه مذهلة وصولا إلى المحيط الأطلسي إنها كانت غارة بعيدة المدى تشق البلاد الفرنسية من الجنوب الى الشمال وتطلع المسلمين على أحوالها وتعد خططها لما بعدها ولو استقر عنبسه فى ليون مثلا أو فى احدى مراكز فرنسا الوسطى لكان يمكن القول انه فتح جنوب

فرنسا وشرقه كله بل كاد يفتحها كلها اما وقد عاد أدراجه لظروف الأندلس الداخلية بعد ان قطع نحو أكثر من ألف ميل شمال قرطبه فإن حملته الرائعه أوضحت الرؤية الإسلامية أمام المسلمين عن حاله هذه البلاد وما هو الضعف الذي أصابها والانهيار الداخلي . على إنه يمكن القول أن عنبسه بن كلیم الكلبي ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر بوصوله بالرأية الإسلامية إلى قلب أوروبا ليستولى على أقاليم واسعة لم يسبقه إليها فاتح إسلامي من قبله ومن بعده وأنها هي المرة الأولى والأخيرة فى تاريخ الدولة الإسلامية التي تصل فيها قواتها إلى بعد لايزيد عن ثلاثين كيلو متر جنوب باريس الحاليه وكان مصير فرنسا قد استقر في أيدي المسلمين لولا الاضطرابات الداخلية فى الأندلس .

وتولى بعد استشهاده عنبسه الكلبي قيادة القوات العائدة جنوبا وكذلك امور الأندلس عذره بن عبد الله القهرى) وتذكر الروايات التاريخية الأوربية والإسلامية أن المسلمين قاموا بأعمال حرية جريئة بعد استشهاده عنبسه مباشرة فى أرض فرنسا ونهض قادة المسلمين وعادوا إلى حوض الرون وعزوا بلاد (الالبين واقليم روبرج وصفودن) وليقليه، وهذه الحملات كما ذكرتها الروايات على جانب كبير من الصحه ذلك أن القائد المسلم المجاهد عبدالرحمن الغافقي حين قام وعبر جبال البرانس وجد المسلمين الذين يعيشون فى أرض فرنسا فى حالة طيبة وروحهم المعنوية عالية ولو أن تقدمهم وقف عند الأعمال التي قام بها عنبسه الكلبي وهو الرجوع إلى الأندلس لما استطاع عبدالرحمن الغافقي أن يقوم بهذا العمل الإسلامى والحربي الكبير بالفتح فى فرنسا

وهكذا كانت الأعمال التي قام بها السمع بن مالك الخولاني ومن بعده عنبسه الكلبي ومن سبقهم من الولاة ومن جاء بعدهم حتى تولى عبدالرحمن الغافقي ماهي إلا مقدمات للعمل الذي سيقوم به الغافقي وهو الحشد والإنطلاق لغزو أوروبا فكانت بلاط الشهداء .